الثورة السورية إذ تكشف المستور

الكاتب : وائل مرزا

التاريخ : 11 مارس 2012 م

المشاهدات : 10637

حين نتحدث عن الثورة السورية تحديداً فإننا نحاول ملامسة ظاهرةٍ جديدةٍ كلياً، خاصةً إذا أخذنا بالاعتبار كل ما فيها من خصوصيات سياسية وثقافية واجتماعية وجغرافية. ربما يطول الحديث ويتشعّب، لكن الأمر ينتهي عند (الملامسة) وهو أبعد ما يكون عن (الإحاطة).

قد يكون هذا سبباً لكثيرٍ من المشاعر المتناقضة التي تراود السوريين وغيرهم هذه الأيام. فمنذ عامٍ مضى من عمر الزمان كانت سورية، بسياستها الخارجية وأوضاعها الداخلية، كتاباً مفتوحاً سهل القراءة. لكنها اليوم تكاد تكون لغزاً يُحيّر الكثيرين. وإذا بحثنا عن شيءٍ حققته هذه الثورة فقد يتمثل في كشف كثيرٍ مما كان مستوراً في سورية وعنها.

كشفت الثورة أولاً حقيقة نظامٍ كان يملك أكثر من وجه. فوجهٌ يدّعي الوداعة والتحضّر، وآخر يبدي ملامح المقاومة والممانعة، وثالث يتلبّس لبوس المعاصرة والتقدم. أفلح النظام السوري ماهراً في اللعب على تناقضات المنطقة والنظام الدولي عقداً من الزمان، واستخدم تلك الوجوه بشكلٍ متناوب، إلى درجةٍ أصبحت فيها شعبيته بين بعض دول المنطقة كبيرة. كان المشهد سوريا ليا بكل معنى الكلمة، لكن الكذبة كبرت حتى أصبحت في نظر الكثيرين حقيقةً واقعة، وصار النظام أشبه بسرطان لبس قناع الحياة وبات وجوده طبيعياً وعادياً. لهذا، لم يكن ممكناً كشف حجم الزيف والتزوير والادّعاء في هذا المجال بممارسةٍ عادية أياً كانت وفي أي ساحةٍ جاءت.

كان الأمر بحاجةٍ لثورة. وما إن أشعلها الشعب السوري حتى سقطت الوجوه والأقنعة، وظهرت حقيقة النظام الأصيلة واضحةً كالشمس، بكل ما فيها من ملامح القبح والبشاعة والتشويه على جميع المستويات. والخطير في الموضوع ليس جانبه الأخلاقي، رغم معانيه المعبّرة، وإنما أهميته الفائقة كتطورٍ إستراتيجيٍ إقليمي وعالمي بالغ الأهمية، لأن لسورية دوراً حضارياً يجب أن تلعبه وستلعبه في نهاية المطاف، بما لها من رصيدٍ تاريخي وإمكانات بشرية وموقع مميز في الجغرافيا السياسية. وهذا ما كان مستحيلاً في ظل الواقع السابق، وانفتحت أبوابه الآن رغم كل التضحيات.

كشفت الثورة السورية أيضاً، وتكشف باضطراد، الحاجة لنظامٍ إقليمي وعالمي سياسي مختلف. وإذا كانت الثورات في مصر وتونس واليمن وليبيا قد وضعت هذا النظام أمام استحقاقات جديدة، فإن الثورة السورية أكّدت بما لا يدع مجالاً للشك الحاجة إلى بلورة نظامٍ مغاير لا يتعامل مع هذه الظاهرة بعقلية (الاستيعاب والالتفاف). فهذه الممارسة لم تعد كافيةً على الإطلاق. وإذا استمرّت فإن العالم بأسره سيواجهُ تحديات ضخمة لن يمكن مقارنة تحديات العقد الماضي أمامها في

قادم الأيام..

لكن أعظم ما كشفته الثورة السورية يتمثل في قدرة هذا الشعب على استخراج مخزونه الحضاري الهائل وإحداث نقلة في منظومة القيم والمعاني، وفي القدرة على التنسيق والابتكار والتنظيم، وعلى استيعاب المراحل وتوزيع الأدوار، وعلى خلق وتأمين شبكات فريدة ومتطورة للعلاقات الاجتماعية باتت ترسم ملامح نسيجه الوطني.

لا نقلل هنا من قيمة التحديات وحجمها أياً كانت، وبعناوينها الكثيرة المعروفة. لكن هذا لا يجب أن يلهي العقلاء عن حجم الكمون الذي أظهرته الثورة، وعن ملامح سورية الجديدة التي سيُظهرها هذا الكمون في آخر المطاف.

لا تعدم سورية هؤلاء العقلاء، وهم كثرٌ رغم ضجيج شرائح أخرى. لفت نظري في هذا الإطار مقولةٌ لأحد أبطال الثورة المجهولين من قلب حمص أنقلها بتصرف بسيط ويقول ـ فيما يقول ـ فيها:

«لم تعد تروقني الصورة الإعلامية التي تصنعها وسائل الإعلام عن ثورتنا.... فما أكثر ما يخرج لنا الناطقون الإعلاميون من هذا التجمع أو ذاك، ليندبوا حظهم ويشكوا قلة حيلتهم.....

هكذا أُخرجت الأمور كلها من سياقها الأصلي، وتحولت قصتنا من ثوار أبطال... إلى شعب أعزل لا حول له ولا قوة.. وباتت ثورتنا (مأساة إنسانية) تستحق الشفقة والبكاء في كل نشرة، ونسينا أننا بلغنا من القوة ما لم نبلغه طيلة عقود ماضية.... وأن النظام بلغ من الضعف ما لا يتصوره مرء.. من يريد أن ينجح في ثورة لا يبكي وهو يناشد العالم في التدخل ولا يوفر مناسبة ولا منبراً إعلامياً ولا تسمية جمعة إلا ويناشد (ضمائر وأخلاق العالم) للتدخل... هذه ثورة يا سادة... وكل ثورة تأتي بمصالح جديدة وتلغي مصالح قديمة. وهذا يعني بالضرورة وقوف الكثيرين ضد إفساد مصالحهم ودعم البعض لأجل إرساء مصالحهم المأمولة.. (ونظام الأسد بالذات لم ينجح سوى بربط مصالح العالم معه).. يكفي ندباً وبكاء ورجاءً واستجداءً.. ولنتحدث بمنطق القوة، بمنطق الثورة، منطق من أخذ زمام المبادرة، وصنع واحدة من أعظم الثورات العربية..... »..

كلامٌ معبّرٌ أصيل يُعبر عن روح الثورة السورية، فالمعطيات التي لدينا تؤكد بأن الأيام حُبلى بالكثير.. والأمور تتقدم رغم كل المظاهر.. ومسارات السياسة المُعلنة لا علاقة لها في بعض الأحيان بما يتمّ التحضير له في واقع الأرض.. هل يعلم الكثيرون معنى أن يدخل مراسلو الجزيرة والعربية (المناطق المحررة) في سورية بكل حرية، وأن ينقلوا الصورة منها؟! هذا مثالٌ واحدٌ، والمهم ألا يتم السماح لضغط اللحظة الراهنة أن يدخل الوهن في النفوس ويُشيع اليأس في قلوب الناس.

باختصار، دعونا نتذكر دائماً ونذكّر الآخرين: الثورة السورية أعظم ثورات العصر الحديث، فحذار من تقزيم صورة هذه الثورة بأي حالٍ من الأحوال.

المصدر: العربية نت نقلاً عن "المدينة" السعودية

المصادر: